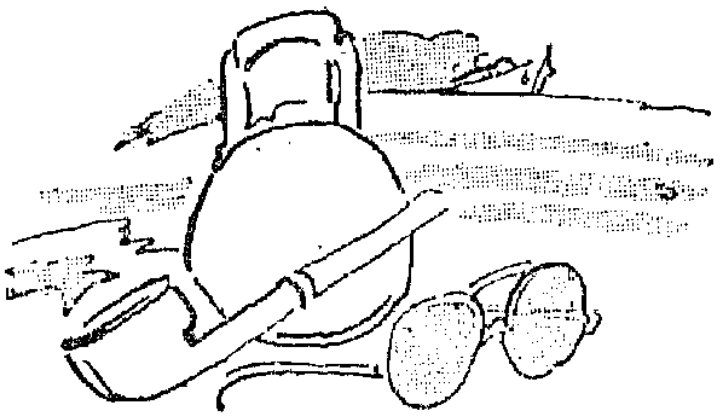

الأفرع النزهى . انسان أفرع ونزهي .
أعني أفرع الجيب ، خاوي الوفاض . .
بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق
دائم .. وهو بعد كل هذا نزهى فنجري .

النزهى ..

obeikandl.com

هذا ذات صيف ، فى زمن خلا ، زمن كنت فيه نموذجاً للأقرع النزهى . . !

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف القارىء شيئاً عن حقيقة هذا الأقرع النزهى .

الأقرع النزهى . . إنسان أقرع ونزهى . . أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا ، نزهى فنجرى ، ابن حظ ، محب للفرفشة ، والصرف ، والتهييص ، فهو يصرف ما فى الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش الأبيض ، دون أن ينتظر من غده أسود ولا أبيض . وينزه نفسه بكل ما يحب ويشتهى ، وعلى الله التدابير .

أقول إنى كنت فى زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نموذجاً للأقرع النزهى ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولى « كنت فى زمن خلا » ، أنى قد أضحيت من كبار الأثرياء ، وأن جيبى قد نبت شعره وزال قرعه ، بل كل ما فى الأمر ، أنى لم أعد نزهياً ، وأن ضيق الوقت

وكثرة المشاغل ، وأعباء الحياة . قد أضاعت من النفس خفتها وصدتها عن اللهو والعبث ، وسدت فى وجهها سبل الفرفشة والتهييص .

وعندما أجلس اليوم لأكتب فى حمارة القيظ ، وطيب الحر ، وأنا حائر ، بين أن أفتح النافذة فأكتوى بسياط الشرد ، تلفح وجهى وتشوى بدنى ، وبين أن أغلقها ، فأكتم أنفاسى ، وأسلق جسدى ، وأضحى كما يقولون « عرقى مرقى » .

عندما أجلس لأكتب وسط هذا الجحيم الأرضى ، يحلو لى أن أعزى النفس ببعض ذكريات صيفية تندى عليها وتبل حرارتها ، وتعوضها ولو بالوهم عن متعة المصيف وإغراء الشاطىء والمستلقيات على الشاطىء .

كنا ثلاثة ، وخير ما أستطيع أن أصف به أنفسنا حينئذ ، هو ثلاثة صبية ، وإن كنا نحس وقتذاك أننا فى عنفوان الرجولة ، وأنه لا يوجد على ظهر الأرض أرجح منا عقلا وأكثر حكمة ، وأن كل الناس — عدانا — ما بين صبى أحمق وعجوز مخرف !

وكنا نكون عصبة ، مهرجة ضاحكة ، لا نكاد نعترف بأن فى الحياة أحزاناً ، وكان شعارنا بسمة على الشفاه ،

وقهقهة تصدر من القلوب قبل الأفواه ، نستنبت الضحك من منابت الحزن ، ونستدر البسمات من موارد البكاء ، لا يكاد يوجد ما يحبس نكاتنا ويغلق أفواهنا ، حتى فى مواقف العزاء وتشييع الجنازات ، كنا نكسو وجوهنا علائم الحزن بشق الأنفس ، إذ نذهب لتعزية أحدنا فى وفاة أحد أقاربه ، فلا نكاد نبصره وقد وضع طربوشاً اقترضه فى منتصف رأسه ، وأطرق برأسه مدعياً الحزن ، حتى تصيبنا نوبة من الضحك نلاقى الأمرين فى كتمها .

وكنا نستطيع أن نجعل من أى إنسان — مهما ثقل دمه — مورد تسلية لنا ، بمراقبة حركاته ، وتمثيل أعماله وتصرفاته .

وكنا نلعب معاً فى تيم الكرة بالمدرسة ، السكند تيم طبعاً ، ولم يكن وضعنا فى التيم ناتجاً عن إجادتنا للعبة بل كان منا مجرد عفونة وتلحمة وخوف من مراقب الفريق من طول لساننا ورغبة منه فى مداراتنا والانتفاع بنا فيما يتطلب المشاكسة والمناكفة .

وكنا دائماً السبب فى هزيمة التيم ، فما أظن أن ملاعب الكرة قد رأت أسوأ منا ، ومع ذلك ، فلم يكن أسهل علينا من تقارض المديح وتبادل الثناء ، و « الطارد لك »

ويخيل لى أنى أستطيع — بمنتهى السهولة — أن أملأ عشرات الصفحات . . عن حوادثنا وقتذاك وعن النوادر المختلفة التى كانت تقع لنا ، ولذا أخشى أن أترك لنفسى العنان فأملأ حيز القصة ، دون أن أكتب القصة ، وأن أختتم كتابتى بمجرد مقدمة بلا قصة ، وعلى ذلك فمن الخير أن ندخل على القصة رأساً .

فى ذات صيف رأينا — بلا داع — أن نذهب للتصييف فى الإسكندرية ، وعندما أقول بلا داع ، أقولها قول الواثق الجازم ، لأنه ، أولا ، لم يسبق لنا عادة التصييف ، بل كنا قانعين كل القناعة بقضاء الصيف ما بين روض الفرج وقصر النيل ، وثانياً ، لم تفكر عائلة أى منا فى التصييف حتى يكون ذلك داعياً لسفر أحدنا وأخذ صاحبيه معه ، وثالثاً ، لم يكن لأحد منا أى أقارب يمكن أن يستضيفونا فى الإسكندرية . ورابعاً لم نكن نملك حرية السفر دون أهلنا ، وخامساً وهو أهم من كل ما سبق ، لم يكن معنا النقود التى تكفينا للتصييف .

ومع ذلك ، ورغم كل ما سبق ذكره ، قررنا التصييف ، فقد كانت الحكمة الوحيدة التى نتبعها يومذاك ، هى أنه

لا مستحيل فى الحياة ، وما دمنا على قيد الحياة ، فكل شىء ممكن عمله .

وهكذا بدأنا الاستعداد للتصييف وتحايلنا على أهلنا مدعين أننا سنذهب فى رحلة مع المدرسة لنعسكر فى خيام على شاطىء سيدى بشر ، واستطاع كل منا الحصول على قدر ضئيل من المال ، جمعناه على بعضه ، لنصرف منه معاً ، وبدأنا بموازنة الميزانية .

ولم تكن موازنتها — نظرياً — بالأمر العسير . فما كانت لدينا أقل فكرة عن أوجه الصرف وتكاليف المعيشة ، فقدرنا ما شاء لنا الجهل أن نقدر ، واستطعنا بمنتهى البساطة أن نسوى المنصرف بالإيراد .

وبدأنا الجهاد ، فقد كانت العملية لا يمكن أن تكون — بهذا المبلغ التافه — إلا جهاداً وكفاحاً لا من أجل التصييف والتنزه والفرفشة ، بل من أجل الحصول على لقمة العيش والمأوى والستر ، أى أنه كان علينا أن نجاهد ، لا من أجل المتعة ، بل من أجل البقاء — فى المصيف — على قيد الحياة .

بدأنا الجهاد محملين بالزاد والزواد ، مما استطاع كل منا تهريبه من بيته ، من المأكولات الجافة التى يمكن أن تعيننا

فى الضراء وتشد أزرنا فى البأساء ، وحصلنا بذلك على كمية لا بأس بها من القراقيش وعلب المربى والسردين . واستطعت أنا — بالإضافة إلى ذلك — أن أسرق قدرة من الجبنة القديمة وصفيحة عسل وبرطمان مخلل . . كنا نعدها يومذاك من أثمن الأسلاب وأقيم الذخائر .

وككل أفرع ونزهى ، صممت على ألا نذهب إلى المصيف إلا بعد أن نبتاع ملابس المصيف اللازمة — فى عرفنا — لكل أرستقراطى منتفخ الجيب ، من مايوه صوف وبرنس ، إلى قميص حرير أبيض سبور وبنطلون فانلة ، إلى كاسكت ونظارة سوداء وبيب (غليون) . ولما كانت ميزانيتنا العجفاء لا يمكن أن تسمح لكل واحد منا أن يبتاع طقماً كاملا . فقد ابتعنا واحداً من كل نوع واتفقنا على أن نقسم الطقم الأرستقراطى إلى ثلاثة أقسام نتبادلها يوماً بعد يوم . فواحد منا يرتدى المايوه والبرنس . والثانى يرتدى القميص والبنطلون ، والثالث يتمتع بالكاسكيت والنظارة والبيب .

ورحلنا عن القاهرة ونحن أقرب إلى أهل الريف . بذلك الخرج المملوء بالقراقيش وقدرة المش وصفيحة العسل وبرطمان المخلل ، وهبطنا إلى الإسكندرية وقد تملكنا

إحساس المقدم على مغامرة اكتشاف مجاهل وغياهب . .

ولست أريد الإطالة فى سرد التفاصيل والعقبات التى صادفتنا حتى استقرت بنا الأمور — بقدرة قادر — فى إحدى الكبائن الخشبية فى بقعة ما ، بشاطىء الإسكندرية ، والواقع أنى لا أدرى حتى الآن كيف أمكننا تذليل العقبات وتخطى الصعاب ونحن على ما كنا عليه من جهل وسوء تصرف ، ولكن الذى أدريه أننا اتبعنا نظرية « دع الحياة تسير » ، وأننا « ما دمنا أحياء فلا شىء مستحيل » ، وهكذا وجدنا الأمور تتبسط وتحل ، والحياة تسير بنا ، حتى تستقر فى كابينة « مدام ماريكا » ، التى تنازلت لنا عن حق سكناها ، وأخلتها لنا ، نظير ثلاثة جنيهات ، وبرطمان المخلل ، وزيارتها لنا ثلاث مرات يومياً ، لتطمئن على سلامة الكابينة ، ولتتأكد أننا لم نحملها ونعود بها إلى القاهرة .

وجلسنا فى الكابينة الجرباء المشققة ، كنا نسير فيها فتقرقع أرضيتها تحت أقدامنا فتذكرنا بقول الشاعر :

ودار خراب بها قد نزلت
ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون
بها أو أكون على القارعة

امن القطارات

وأخشى بها أن أقيم الصلاة
فستجد حيطانهـــا الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت
خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولم تكن كابينة « مدام مريكا » بأفضل كثيراً من دار الشاعر . ومع ذلك فقد كان بنا من فرط الفرحة بها ، إحساس قاطن أنطونيادس ، وساكن الزعفران . وأخذنا نتمطى ونتلوى على الفراش الوحيد والمرتبة الملقاة على الأرض ، كأننا لم ننم على فراش أو مرتبة من قبل .

* * *

ورتبنا الأطعمة فى دولاب المطبخ واتفقنا على أن نكون عقلاء منظمين ، وأخـــذنا فى كنس الكابينة ومسحها وتنظيف حيطانها مما علق بها من الأتربة ووضعنا فيما بيننا نظاماً للخدمة — إذ لم يكن من المعقول أن نفكر فى إحضار خادم — واتفقنا على أن تكون الخدمة بالنوبتجية ، فيتولى كل منا أمر الدار فى يوم كامل يبدأ من الشروق وينتهى فى شروق اليوم التالى ، على أن يؤدى لها كل ما يلزم من مسح وكنس وشراء طعام وطبخ

وغسل أوان وغسل ملابس وكيها ، ومقابلة « مدام ماريكا » والإعجاب بها .

وسارت بنا الحياة سهلة لطيفة مرحة هانئة ، وتعوّد كل منا أن يقوم بدور خدمته على أتم وجه بلا تقصير ولا تذمر ، وتعوّدنا كذلك تبادل مهمات الأرستقراطية — وهى ملابس الشاطىء — دون أن يحدث بيننا أى خلاف أو نزاع .

وبدأنا مغامراتنا الغرامية . مغامرات عابرة طيارة ، ولم تكن متعتنا بالمغامرات نفسها قدر متعتنا بالتفاخر بها ، وبأن يقص كل منا تفاصيلها على الآخرين ، مضيفاً إليها الحواشى والرتوش ، مضفياً عليها من بنات أفكاره ما استطاع من أوهام وأكاذيب .

وفى ذات يوم ، خرجت وحدى قبيل الغروب للتنزه على الكورنيش ، فقد كان أحد الرفاق منهمكا فى مقابلة مدام ماريكا التى لم تنقطع قط عن الحضور ، وفى تلقى تأنيبها على الإسراف فى استعمال المياه وكان الرفيق الآخر — كما يدعى — على موعد غرام .

وكنت أشعر فى ذاك اليوم أننى على أتم حال من الوجاهة والأرستقراطية ، فقد كان نصيبى فى ذات اليوم من اللوازم طقم النظارة السوداء والكاسكتة والبايب .

وكنت قد استعرت من صاحب الملازم للدار — أى الذى سيقوم بالخدمة — نصيبه المكون من القميص الحرير والبانطلون الفانلة الأبيض .

وقد كان يتملكنى وقتذاك وهم عجيب من النظارة والكاسكيت والبايب ، إذ يخيل لى بمجرد أن أسير بهذه الأشياء أنى قد أصبحت إنساناً آخر أقرب إلى الملوك والأمراء ونجوم السينما ، وكنت أستغلها أقصى استغلال فلا أتركها لحظة واحدة ، حتى عندما تسقط الشمس ويسود الظلام ، وكانت الكاسكيت تستمر قابعة على رأسى ، والنظارة السوداء ملاصقة لعينى ، ومالى أنا ولسقوط الشمس وشروقها . إن الأدوات التى ألبسها ، أدوات أرستقراطية ، فهل يعقل أن تغيب الأرستقراطية والمظهر الجذاب بمجرد غياب الشمس .

وهكذا سرت بالكاسكيت والنظارة السوداء والبايب والبانطلون والقميص ، وقد خيل إلىّ أن أنظار الناس قد تسمرت فىّ . . وأخذت تحدجنى ، وأنى قد بت شغلهم الشاغل ، وأن الشفاه الحلوة العذبة لم يعد لها عمل إلا التهامس علىّ والإعجاب بى .

وهززت رأسى وقلت لنفسى معهم حق ، فما أظنهم قد

رأوا من قبل من ارتدى الطقمين معاً ، طقم الكاسكت وطقم القميص والبنطلون .

وصممت على انتهاز هذه الفرصة التى قل أن يجود بمثلها الدهر . وأن أقدم على استغلالها ، فألقى بدلوى فى الدلاء ، وأن أبدأ عملية المعاكسة و « البصبصة » وأنا على حالى تلك من الوجاهة والأناقة ، فلا أظننى أستطيع أن أقع على صيد أثمن مما يمكن أن أقع عليه وأنا بهذه الأرستقراطية المزدوجة .

ويشاء الحظ العجيب أن يقع الصيد فى غمضة عين . . وأى صيد ! ! صيد لم أكن أحلم به . . ولا أفكر فيه ، ولا أتطاول إليه .

كانت من نوع يجذب النظر من بين الآلاف الموجودة . نوع براق أهيف فائر ، صارخ الفتنة ، « زاعق » الجمال . لا يستطيع أى نوع من الثياب أن يستر محاسن جسدها . فهى عارية عارية ، وكاسية عارية ، لا تملك العين إلا أن تستشف من وراء الثياب ما أخفت الثياب .

ولست أدرى ، أكان حقاً سر النظارة السوداء والكاسكيت والبايب والقميص الحريرى هو الذى أوقع

الفاتنة فى شراكى ، أم كانت المسألة مجرد بخت حلو ، وفضل من الله . . ؟

على أية حال ، لم يكن لدىّ وقتذاك فرصة للتفكير فقد كنت فى حالة « دوخان » من فرط الفرحة ، ووجدت نفسى — بدون جهد — أقف بجوارها متكئاً على الكورنيش . وقد تلاصق كتفانا وأخذنا نتحدث بلا كلفة كأننا أصدقاء قدامى .

ولم تكن فرحتى فى الواقع ناتجة عن متعة بالفتاة نفسها بل كانت ناتجة عن تصورى ما أنوى قصه على صاحبى ومدى ما أستطيع التفاخر به . وكنت أرتب فى ذهنى التحابيش والتحاوير التى أنوى إضافتها إلى مغامرتى الجديدة ، وكنت أمعن النظر فى وجه الفتاة حتى أستطيع أن أصفها لهما جيداً .

واستمر الحديث بيننا هادئاً ممتعاً ، حتى أخبرتنى فى خلاله أنها ابنة « فلان باشا » . وأحسست برأسى يدور ، من يصدق هذا ، ابنة باشا مرة واحدة ؟

وتمنيت لو استطعت أن أتركها وأعود إلى البيت حتى أحضر الصاحبين الخبيثين ، ليشاهدا بنفسيهما « الأملة » التى أصبت بها وليتأكدا أن مغامرتى حقيقة واقعة ، لا ادعاء

فيها ، وأن ابنة أحد البشوات ، قد سقطت فى هوى . . العبد الفقير .

وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء فى السابعة صباحاً والشاطىء خال ، وتركتها وانطلقت إلى الكابينة لأقص على صاحبي ما حدث لى وأنبئهما بالموعد الصباحى .

ولم يبد عليهما ، علائم التصديق ، وهزا رأسيهما . كأنهما يوافقان على كذبة من معتاد للكذب ، فقلت لهما ، بلهجة الواثق ، أنهما يستطيعان التأكد من صدق قولى بأن يذهبا للشاطىء فى الساعة السابعة حيث ألتقى بالحبيبة الأرستقراطية .

وهزّ أحدهما رأسه مستنكراً وتساءل :

ـــ الساعة السابعة ، باكر ؟

فقلت فى ثقة :

ـــ أجل .

ـــ أنسيت أنك نوبتجى باكر .

نوبتجى ! ! . . أجل ، لقد نسيت النوبتجية .. إن علىّ أن أقوم بدور الخدمة فى الغد .

ولكنى لا بد أن أذهب ، ليس هناك قوة فى العالم يمكن أن تمنعنى من الذهاب .

وسألتهما أن يبادلانى ، فأبيا ، وتوسلت إليهما فأصرا على الإباء .

واستيقظت فى الساعة الخامسة صباحاً بعد أن صممت على أن أنهى كل ما لدى من عمل قبل أن تحل السابعة ، ثم أنطلق فى السابعة إلى موعدى ، ماذا يريدان منى أكثر من ذلك ؟

ودخلت المطبخ مشمراً عن ساعدى وبدأت أعد معدات الطهى الذى جهزت لوازمه من الليل .

وكان علىّ أن أبدأ بغسل النحاس ، وفتحت الصنبور فإذا بالمياه مقطوعة .

ولم تمض برهة قصيرة ، حتى كنت مستقراً بكوم الحلل أمام الحنفية على شاطىء البحر ، وبدأت عملية الدعك بالرمال مرة والغسل بالليفة والصابون مرة أخرى حتى جعلت النحاس يبرق من فرط النظافة ، أو كما يقول أهل البيت « قل مفتح » .

وفركت يدى فرحاً واغتباطاً . . وهممت بالنهوض ، راضياً عن نفسى كل الرضاء .

ورفعت بصرى ، فإذا بى أجدها هى ، بدمها ولحمها وصدرها وساقيها ، الحبيبة الأرستقراطية ، ابنة الباشا .

تصوروا موقفي ، وهي تتأملني وقد جلست أمام كوم النحاس بالجلباب كأحقر خادم ، وقد تلوثت يداي بالهباب وأغرقت ملابسي بالمياه والرمال !

وأحسست بالدنيا تدور بي ووجدتني بحركة لا إرادية ، أرفع يدي إلى وجهي فألوثه بالهباب ثم أقول لها بصوت ذليل متواضع كأنني لست أنا ، بل مجرد خادم لي :

— سيدي جايلك حالا .

ثم ألفع النحاس على كتفي وأسير مغنياً بأعلى صوت :

« سلم على . . سلم عليّ . لما جابلني وسلم عليّ ، يا بوي يا بوي » .

ووصلت إلى الكابينة فوضعت النحاس في المطبخ وجلست برهة أستريح من عناء الخضة ، ثم نهضت متمالكا نفسي ، وأخذت أزيل من وجهي الهباب وقد صممت أن أثأر لنفسي من صاحبي فلا أذيقهما طعاماً . . وأن أرتدي كذلك الطقم الأرستقراطي بالكامل فأحرمهما من التمتع بتصليحهما .

وهكذا انطلقت لتوي من الدار مرتدياً المايوه الصوف والقميص الحرير ، والبنطلون ، والكاسكت ، والنظارة ،

والبايب ، وفوق كل هذا ، البرنس ، حتى لا أترك لها قطعة واحدة من قطع الأرستقراطية .

وعدوت إلى الشاطىء فوجدتها مستلقية على الرمال وحيتها فى رقة ، فنظرت إلىّ فى دهشة ووجدتها تقول مستنكرة :

— انت لابس هدوم سيدك ؟ !

يا للفتاة الخبيثة ، لقد أصرت على أننى ما زلت الخادم ، ولم تصدق أبداً أننى فى هذه المرة . . كنت « سيدى » نفسه .

وأخيراً اضطررت لأن أعترف لها بكل التفاصيل وأن أقول لها إنى صعقت عندما رأيتها أمامى وأنا أغسل الحلل .

وكانت رقيقة لطيفة عندما قالت ضاحكة :

— لو لم تفر لعرضت عليك المساعدة .

وما زالت حتى الآن ، إذا ما لقيتنى تسألنى مقهقهة :

— إزاى سيدك ؟